علي زين العابدين الحسيني

سقوط اللون الاصفر

... ولكن يجب ان يأتي جيل يصمد .
« فدائي اسمه الفوسفوري »

● تعريف :

هو المجند خليفه عبد الجواد خليفه من احدى مدن الوجه البحري من اسرة رقيقة الحال ، انهى دراسته الثانوية ثم عمل بالتدريس . وكان واحدا من الجنود الذين اشتركوا في حرب ١٩٦٧ . وقد اسرته مجموعة من جنود العدو في موقع جنوبي الشيخ زويد في سيناء ، واطلقوه بعد عملية تعذيب لم يتخلص من آثارها طيلة السنوات الماضية. وقد ارغموه على الاتجاه غربا وظل سائرا على قدميه مدة خمسة ايام حتى وصل الى مشارف مدينة بورسعيد حيث سقط في غيبوبة دامت يومين . وبعد شهرين تم تسريحه من الجيش ، الا انه لاسباب خاصة ، لم يعد الى بلدته الاصلية وقرر البقاء في العاصمة حيث عمل سائقا لسيارة اجرة ، واعتبر في بلدته من عداد المفقودين رغم تاكيدات القيادة لزوجته بانه موجود .

وخلال وجوده في العاصمة اقام عدة علاقات عاطفية عابرة ، ثم استقرت علاقته بواحدة من بنات الهوى .

وقبل الحرب الاخيرة بعام واحد قرر التطوع في صفوف الجيش، وكلفت كتيبته بمهمة العبور الاول .

. . .
. . .

اما زوجته زينب فليس في حياتها ما يثير الاهتمام باستثناء قصة زواجها بخليفه ، فهي من اسرة عريقة ذات نفوذ قوي في البلدة ، وكانت جميلة ذات بشرة وردية ، ولها عينان في لون خضرة حقول البرسيم .. ولقد بدأت قصة حبها لخليفه عندما كان يأتي لاعطاء دروس خاصة لاخيها الصغير . وحين عرفت العائلة بالامر هددته بالقتل اذا حاول الاتصال بها ، لكنه استطاع بمعاونة اخيها ان يعقد قرانه عليها ، الامر الذي عد في نظر الكثيرين بمثابة انتصار وتحد لاسرة زينب ..

وفيما بعد، استطاعت زينب ان تعيد بعض الوئام الى علاقاتها بالاسرة وقبل الحرب الثالثة بعامين استدعي زوجها لاداء الخدمة العسكرية . وانتظرت عودته بعد انتهاء الحرب دون جدوى مما اضطرها الى الاستفسار عنه من القيادة التي ابلغتها كتابيا بان زوجها حي يرزق .

ورغم ان الجميع اعتبروه من عداد المفقودين ، وحاولوا ان يرغموها على الزواج من جديد ، الا انها ظلت تصر اصرارا واثقا على انه سيعود .

. . .
. . .

● في اليوم العاشر بعد المئة الثالثة بعد الالفين :

بينما كانت الشمس تعبر الشرق ، ارتفعت جلبة الجنود بشكل غير عادي ، وكان واضحا انهم قد أبلغوا للتو بقرار القتال .

ولمدة ثوان ظل خليفة متسمرا مكانه ، وبدا تلك اللحظة أقرب الى البكاء منه الى أمر آخر .

« هل يقدر لعينيه أن تبصقا هذا اللون الباهت ؟!

كان « الاصفر » قد تجمع كغيوم الشتاء . وقد حاول ان يختلس نظرة الى الوراء ليرى ما اذا كانت الالوان قد عادت الى الاشياء ، لكنه ظل واثقا من ان زمنا طويلا سيمضي قبل ان يصير هذا ، وقبل أن يسترد قدرته على وضع اللون الاخضر في عيني زوجته » .

. . .
. . .

وحين كان يضع مهماته في « الناقلة » ويهم بالصعود اليها ، شدته الى الالتفات مناداة صفوت ، فواجه الاثنان كليهما . (كانا قد تشاجرا منذ بضعة أيام ، وكان صفوت من ذلك الطراز الذي يعرف كيف « يشيل » هموم الآخرين ، وكانت من بينها ـ بالطبع ـ هموم خليفة) .

حاول صفوت ان يكسر الصمت المرتبك ، فال :

ـ انتظرنا ، انتظرنا هذا طويلا ، وبحت الصحراء .

وقبل أن يتم العبارة انهمر صوته كنهنهة طفل بكى طويلا . فبانت ـ على الفور ـ الدموع في عيني خليفة ، وانهار تماسكه الرملي ، فاندفعا معا في لحظة واحدة في عناق متهدج ، وحين حاول خليفة أن يقول شيئا احتبس الصوت ولم يتجاوز الحنجرة مطلقا .

« لو انه يهرع اليها الآن ، لاكتسى وجهها باللون الوردي ، ولوضع الوجه بين كفيه . وثبت عينيه في عينيها لينعم بالخضرة

العميقة فيهما ، وحينئذ فقط سيكون في مقدوره ، وهو يبكي على صدرها ، أن يقول عن سر الندوب الرملية في جسده وعينيه » .

ـ أراهن اننا سنتسابق هناك !

« نتسابق ؟

قفزت على الفور في مخيلته صورته العارية والطائرة المروحية الضخمة تطارده في عبث مجنون وهو يسير متورم القدمين على الرمال، يصعد ، يهبط ، يتعثر ، ينكفىء على التراب ، كان الطيار يشير اليه في مرح حين كانت مراوح الطائرة المرعبة تثير زوبعة من الرمال الملتهبة ، التي راحت تنغرس كالابر الشوكية في جسده وعينيه » .

عاد صفوت يحثه على الابتسام : هل تراهن ؟! من فينا سيسبق الآخر ؟!

لكن صوته غرق تماما في لجة هدير الطائرة المروحية الصفراء .

. . .

. . .

ما أن نطق القائد بالعبارة « اعبروا الآن » حتى انتعش على الفور في فمه المرار ونكهة ذلك التراب .

« ها هي سيناء ، حيث يمتزج الحب والبغض معا ، تنتصب ، تمتد ، تتجزأ الآن امام عينيه الى ملايين الملايين من الذرات الترابية تحثه على الافلات والعبور في آن واحد .. فعاوده ذلك الالم المفزع المنبعث من مئات الندوب » .

ـ اعبروا ...

ولم يدر ما اذا كان هو الذي اندفع ، أم ان موجة الرفاق العارمة هي التي دفعته بكل هذا التحدي الجامح . وفيما كان الجسر يهتز بشدة تحت قدميه ، راحت الكثبان الرملية تقترب اكثر فاكثر كما لو كانت هي التي تهاجمهم ، وهاله أن يرى « العاري » منتصبا كالمارد على قمة التل الترابي ، وخشي أن يكون الامر حقيقة هذه المرة ، فاندفع نحو التل في صياح وحشي ، ليدفن « العاري » الى الابد في أعماق التراب . ثمة علاقة بين ما يتراءى له الآن ، وبين ما حدث من قبل ، فحين كسبوا تلك الحرب أسرته مجموعة من جنودهم جنوبي الشيخ زويد ، وأمروه ان يخلع حذاءه ويقف على قضبان السكة الحديدية الملتهبة ، ثم أمره جندي بعد ذلك بنبرة تمثيلية جادة أضحكت الآخرين بأن عليه ان يخلع ملابسه تماما . ولم يدم تردده اكثر من خمس ثوان هي الفترة التي استغرقتها ضراعته الباكية حتى لا يفعلوا . ثم أمروه ان يتقلب على الرمال الملتهبة . وقد فعل هذا وهو ينشج في بكاء في حين كانت طائرة مروحية تحلق فوقه تماما .. ولعله في تلك اللحظة اتخذ قراره الخاص بعدم قدرته على العودة الى زوجته) .

● اللحظة

جثا الجندي على ركبتيه حين اصطدمت ماسورة الرشاش بجبينه بعنف . قال في همس متقطع ، وعيناه تسقطان الى أسفل :

ـ زوجتي وضعت ، ولم أر بعد وجه طفلتي .

الصق خليفة فوهة الرشاش بالجبين ، ولمس اصبعه الزناد فتسمرت عينا الجندي على الاصبع :

ـ زوجتي وضعت ، ولم أر بعد ...

وثب صوت خليفة ليمنع الجندي من المواصلة : اعد هذا مرة أخرى .

ـ زوجتي وضعت .

تفجر الصوت كالقنبلة من فم خليفة . غرس فوهة الرشاش اكثر، وأوشك اصبعه ان يضغط ضغطة الموت ، قال في شراسة لم يعهدها :

ـ دع عينيك في عيني وقل ذلك من جديد ..

رفع الجندي عينيه فبدا فيهما ذعر لا يليق ، وكانت حدقتاه تهتزان على نحو لم يشهد خليفة له مثيلا من قبل وتفصحان عن نهم يائس .

ـ زوجتي ...

مرّر خليفة فوهة الرشاش ـ وهي ملتصقة ـ الى أسفل ، ضاغطا على الانف ، فاندفع وجه الجندي بعيدا عن الفوهة في الوقت الذي ارتفع فيه صوت أحد الرفاق من الخلف : لا تقتله . واكتشف ـ حينئذ ـ بأنه لا ينوي أن يفعل . فأمر الجندي بأن يتجه مع الآخرين صوب الغرب ، وفيما كانت يدا الجندي نصف مشدودتين الى أعلى ، وقبل أن يستدير ، تطلع هذا الى خليفة وقال في صوت منكسر : شكرا لك . فصدمت خليفة نبرة الاغتباط التي فاحت من صوت الاسير .

. . .

. . .

قال الجريح صفوت لرفيقه خليفة وقد جثا بجواره على ركبتيه :

ـ ها أنت تكسب الرهان .

تمعن خليفة في الجرح ، والذراع اليمنى وقد تمزقت تماما ، وضغط برفق براحة يده على الجرح . قال صفوت :

ـ كنت واثقا انك ستسبقني .

خطر لخليفة حين رأى البقعة الرملية الداكنة اسفل الذراع ، ان صفوت سيفقد ذراعه الى الابد ، ولم يفزعه هذا وانما تقبله كحقيقة مسلم بها . وبدا لخليفة ان صفوت يعلم ايضا هذه الحقيقة ..

واصل صفوت ، وبذل جهدا شاقا كي يبدو صوته مرحا :

ـ لن تفعل كل هذا وحدك .

أغمض الجريح عينيه على ابتسامة رفيقه المفعمة بالاسى ، وبدا كما لو انه قد راح في غيبوبة طويلة ، انحنى خليفة عليه حتى تلامس الوجهان ، قال خليفة :

ـ ساعمل احيانا لحسابك .

اهتزت أهداب صفوت ، وبان خط ضيق من عينيه ، وبدا منهمكا تماما ..

ـ احقا ستفعل ؟!

رجا خليفة رجلي الاسعاف ان يترفقا كثيرا بذراعه الممزقة . وحرص صفوت ان يظل وجهه في اتجاه خليفة حين حملوه بعيدا . وقال قبل ان يختفي في جوف السيارة :

ـ ساكتب لزينب عن ذلك ..

« زينب ؟!

انحسرت كل الاشياء من عينيه ، وبقي الوجه الوردي وحيدا كشمس الربيع .

تداخل الوجه في الذراع المدلاة ، والبقة الرملية .

وتماوجت الالوان على ابقاع النبرة الحزينة « ساكتب لزينب » .

● ما وراء الافق الاول

عندما شاهد الجنود يقفزون من الكتلة الحديدية المحترقة ، مرق كالسهم من ثغرة في الجدار المندفع بعنف نحو الشرق ..

في البداية ، أثارت المطاردة حماس الرفاق الذين تعالت تهليلاتهم ، وهم يحثونه على اصطيادهم فورا ، لكنهم أدركوا ـ بعد فوات الاوان ـ ان خليفة قد تمادى ، وان خطرا وشيكا سيلحق به

بعد ان اصبح بعيدا عن حماية نيرانهم . عندئذ ارتفعت بعض الصيحات المحذرة تطالبه بالتوقف والعدول عن المطاردة . لكنهم أدركوا ان الامر لم يعد مجرد مطاردة مجنونة ، حين أطلق خليفة زخة من رصاص مدفعه ليسقط الثلاثة قتلى دفعة واحدة ، بينما واصل ـ وهذا ما أذهلهم ـ انطلاقه الوحشي نحو الشرق ، ثم انحرف فجأة نحو الشمال ، غير آبه بشيء .

. . .
. . .

كان الالم قد بدأ يشيع خدرا ناعما في أوصاله ، وللمرة الاولى يعرف خليفة ان للجرح عذوبة كعذوبة قبلة على شفتي حبيبة ..

ـ « خليفة :

حين بكى صفوت كطفل ، أراد ان يقول : وبُحَّت الصحراء ، وتهدلت الكثبان الرملية ، حتى خَشِيت بأن لا نعرفها » .

ـ « خليفة :

هناك نبوءتان ..

واحدة تقول : حين ترى القمم الخضراء ، ستحملك سيناء على ظهرها مثلما فعلت أنت ..

والثانية تقول : وحين يصبح الشيئان شيئا ، أو حينما تذوب كل الاشياء في الشيء الواحد ، حينئذ فقط ـ يا خليفة ـ حينئذ فقط ـ تخصب في عينيك وتنهمر الالوان ، وترى زينب » .

ـ « خليفة :

كنت صغيرا حين اخذوك الى متحف الشمع ، لكنك لم تنس بالطبع منظر ذلك الفارس المهيب وقد تجمدت ذراعه بالسيف البتار على بعد لحظة واحدة من عنق التتري .. وقد اعلنت لابيك يومئذ ، بانك لن تنصرف قبل أن يغوص سيف الفارس في العنق . وبعدها لم تتوقف عن تذكير الصغار بذلك : حاذروا ايها الصغار ان تتعلموا التاريخ من متاحف الشمع » .

. . .
. . .

كبوصلة لا تكل ولا تمل من البحث عن نقطة في الشمال ، والشرق ، ظلت عينا خليفة تنهبان الصحراء بحثا عن « الشيخ زويد » وحين نفذ الى رئتيه عبيق « بيوتها الطينية » أطلق قدميه بعشرين خطوة دفعة واحدة ، ثم انكفأ رغما عنه وغاص وجهه في الرمل .

وكان خليفة حين لا يقوى على السير « اليها » يزحف زحفا ساحبا وراءه خيطا رفيعا متقطعا من الدماء .

. . .
. . .

حين رأى خليفة القمم الخضراء وغشيت انفه رائحة العرق المنبعثة من سعف النخل ، فرد على الفور ذراعيه بقدر ما يستطيع ، وبدا كالطائر الخرافي وهو يدور حول نفسه ، يحتضن الآفاق ، يجثو على الركبتين ، يفتسل بالتراب ، وصوته الوحشي يدوي في جنبات الصحراء :

« سيناء ، ها أنا قد أتيت .

فمن ، من فينا يحرر الآخر يا سيناء ؟! »

● زينب تتكلم :

لان زينب لا تجيد القراءة والكتابة ، فقد أملت هذه الرسالة على طفلة قريبة لها :

الى عموم اخوة الجندي خليفة عبد الجواد خليفة ..
بعد التحية والسلام .

احيطكم علما بأن الجندي صفوت ، قد اتصل بي ، وانني زرته في المستشفى ، وقد أخبرني بانه رأى زوجي الجندي خليفة عبد الجواد خليفة ، وانه تركه سليما معافى .. وحين استحلفته باعز وأغلى ما لديه ان يعطيني اثبات على ان خليفة حي ، قال لي بأن خليفة كان يقول دائما لو ان الله يعطيه ذراعا ثالثا لاستطاع ان يقهر الكثير من الاعداء .. ثم ابتسم لي وقال : ولهذا السبب أعرته ذراعي ، وسأرى ماذا سيفعل به الآن ، وحين رآني صفوت أبكي قال: لا يليق بك ان تبكي يا زينب ، فخليفة شيء مستحيل على الموت ، فبكيت اكثر .

كما وأحيطكم علما بأن الجندي خيري قد عاد الى البلد وأخبرني بانه يعرف خليفة حق المعرفة وان الكل تقريبا في الجبهة يعرفونه ، وقال انهم هناك يحكون قصصا كثيرة عنه وانه يظهر للجنود داخل سيناء ويبدو كسراب وما هو بسراب .

فان وصل مرسالي هذا لكم يا اخوة الجندي خليفة عبد الجواد خليفة فأرجوكم ان تعرفوني حالا عن الخبر الصحيح مهما كان وأعدكم ان اكون على ما يرام في جميع الاحوال .

الداعية لكم بطول العمر

زينب زوجة الجندي خليفة عبد الجواد خليفة

ملاحظة : كاتبة هذا الجواب هي زهرة عبد الخالق رضوان ، شقيقة أحمد عبد الخالق رضوان ، الذي سلم للحكومة الطيار اليهودي الذي أسرناه عندنا .

● صفحة من كتاب القراءة الرشيدة :

« رأى الجنود خليفة وهو يطارد الاعداء ويقتلهم
« صفق الجنود لخليفة
« خليفة لم يعد الى بيته وزوجته ، فأين ذهب خليفة ؟!
« ذهب خليفة ليضع كل الالوان على كل الاشياء
« اللون الاحمر : للجرح
« اللون الاخضر : للعينين
« اللون الازرق للافق « الشرقي » النائي ..
« ذهب خليفة عبد الجواد خليفة ، كيما تخصب كل الالوان في سيناء » .

. . .
. . .